تقـديـــم

كانت فكرةُ إخراج كتابٍ عن «الإديولوجيا في الرواية والرواية كإديولوجيا» من وجهة نظر النقد الأدبي قد ألحّت علينا منذُ عـدة سنوات وخـاصة عنـدما آطّلعنـا على أبحاث النـاقد الروسي الكبير باختين، لأنَّ هذه الأبحاث كانت تَطْرَحُ، بالنسبة لنظريـة الروايـة، إشكاليـةً كبيـرة بالنـظر الى أنها كـانت تؤكد عـلاقة الـرواية بـالإديولـوجيا، لكن ليس على الـطريقة الماركسية المألوفة؛ فباختين كان مشدوداً في أغلب مـراحل بُحُـوثه، حـول الفن الروائي، إلى عالم المحتوى، وكأنه كان يُبَطِّنُ هـروباً مقصـوداً من معالجـة الروايـة ذاتها بـاعتبارهـا مسـاهمة إديـولوجيـة في حقل الصـراع الإديولـوجي العام في المجتمـع الذي ظهـرت فيه النماذج المدروسة. وكان إلْحَاحُهُ على نمط روائي خاص، هو النمط الديالوجي، يقدم لـه كل وسائل البرهنة الكافية لإثبات موقف الكاتب المحايد الذي يترك الإديولوجيات تتصارع في النص ولا يتدخل أبداً لصالح إديولوجية دُون أخرى.

كانت أعْمال دوستويفسكي أمْثلة نموذجية لإثبات التعايش الصدامي بين الإديـولوجيـات في النص، مع احتفاظ الكـاتب بحياده الخـاص بحيثُ يُترك القـارئُ في حيرة تـامة أمـام صعوبة تحديد الموقف الحقيقي للمبدع.

وقد كان اهتمام البـاحثين ذوي النـزوع البنيوي في فـرنسا ـ بشكـل خاص ـ ببـاختين قد أثار لدينا كثيراً من التساؤلات. كيف تُسْتَقْبَل آراء بـاختيـن التي تُمَوْضِـعُ نفسها في إطـار سوسيولوجي وإديولوجي، من طرف نقاد كانوا من أكبر دعاة التحليل البنيوي وعزل الأعمال الأدبية عن السياق الإديولوجي والسوسيولوجي، ونشير بـالأخص إلى تودوروف؟ فقـد كتب هذا الباحث كتاباً عن باختين مُرَكِّزاً على المبدأ الحواري داخل النص الـروائي. ولقد تبين لنا أن نقطة آلْتِقاءٍ كبيرة كانت هي عَامِلَ التّقارُب بين الاتجـاه البنيوي وتحليـلات باختين؛ فحتى لو كان باختين يتحدث عن الإديولوجيا في الرواية، فهو يعتبـرها مـادة أولية من مـواد بناء الرواية، إنها ليست مقتبسة من الواقع، ولكنها تجسيد لواقعية الإديولوجيا نفسهـا: أي مظهر من مظاهرها. فالنص إذاً ليس موجوداً خارج الواقع الإديولوجي ولكنه منغمس فيـه؛ ولذلك فهو ليس في حـاجة إلى أن يعكس الإديولوجيا مـا دام يوجـد في مجراهـا الطبيعي. ومن ثم آسْتَنْتَجَ أن دراسة الإديولوجيا في النص الروائي ليست في حاجة إلى الإحـالة على